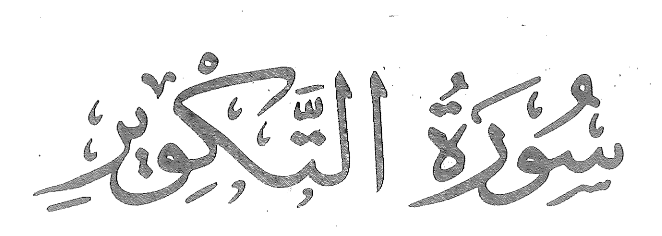

سُورَةُ التَّكْوِيرِ

سورة التكوير

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

﴿ إِذَا ٱلشَّمْسُ كُوِّرَتْ (١) وَإِذَا ٱلنُّجُومُ ٱنكَدَرَتْ (٢) وَإِذَا ٱلْجِبَالُ سُيِّرَتْ (٣) وَإِذَا
ٱلْعِشَارُ عُطِّلَتْ (٤) وَإِذَا ٱلْوُحُوشُ حُشِرَتْ (٥) وَإِذَا ٱلْبِحَارُ سُجِّرَتْ (٦) وَإِذَا ٱلنُّفُوسُ
زُوِّجَتْ (٧) وَإِذَا ٱلْمَوْءُۥدَةُ سُئِلَتْ (٨) بِأَىِّ ذَنۢبٍ قُتِلَتْ (٩) وَإِذَا ٱلصُّحُفُ نُشِرَتْ (١٠) وَإِذَا
ٱلسَّمَآءُ كُشِطَتْ (١١) وَإِذَا ٱلْجَحِيمُ سُعِّرَتْ (١٢) وَإِذَا ٱلْجَنَّةُ أُزْلِفَتْ (١٣) عَلِمَتْ نَفْسٌ مَّآ أَحْضَرَتْ
(١٤) فَلَآ أُقْسِمُ بِٱلْخُنَّسِ (١٥) ٱلْجَوَارِ ٱلْكُنَّسِ (١٦) وَٱلَّيْلِ إِذَا عَسْعَسَ (١٧) وَٱلصُّبْحِ إِذَا تَنَفَّسَ (١٨)
إِنَّهُۥ لَقَوْلُ رَسُولٍ كَرِيمٍ (١٩) ذِى قُوَّةٍ عِندَ ذِى ٱلْعَرْشِ مَكِينٍ (٢٠) مُّطَاعٍ ثَمَّ أَمِينٍ (٢١) وَمَا صَاحِبُكُم
بِمَجْنُونٍ (٢٢) وَلَقَدْ رَءَاهُ بِٱلْأُفُقِ ٱلْمُبِينِ (٢٣) وَمَا هُوَ عَلَى ٱلْغَيْبِ بِضَنِينٍ (٢٤) وَمَا هُوَ بِقَوْلِ شَيْطَٰنٍ
رَّجِيمٍ (٢٥) فَأَيْنَ تَذْهَبُونَ (٢٦) إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ لِّلْعَٰلَمِينَ (٢٧) لِمَن شَآءَ مِنكُمْ أَن يَسْتَقِيمَ (٢٨) وَمَا
تَشَآءُونَ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ رَبُّ ٱلْعَٰلَمِينَ (٢٩) ﴾ [التكوير: ١-٢٩].

* تسمية السورة:

١- اسمها الوارد في غالب كتب التفسير: «سورة التكوير»[١]، ومع كونه لم يرد نصًّا في السورة، إلَّا أنه مصدر من قوله تعالى: ﴿إِذَا ٱلشَّمْسُ كُوِّرَتْ﴾، مثل «الانفطار»، مأخوذ من قوله تعالى: ﴿إِذَا ٱلسَّمَآءُ ٱنفَطَرَتْ﴾ و«الزلزلة» من قوله تعالى: ﴿إِذَا زُلْزِلَتِ ٱلْأَرْضُ زِلْزَالَهَا﴾.

٢- «سورة ﴿إِذَا ٱلشَّمْسُ كُوِّرَتْ﴾»، كما في حديث ابن عمر رضي الله عنهما، أن رسول الله ﷺ قال: «مَن سرَّه أن ينظرَ يومَ القيامةِ كأنه رأيَ عينٍ، فليقرأ: ﴿إِذَا ٱلشَّمْسُ كُوِّرَتْ﴾»[٢].

وكذلك سمَّاها البخاري، وبوَّب بذلك في «صحيحه»، والترمذي في «جامعه»، وبعض المفسرين[٣]، فهو اسم للسورة بإحدى آياتها، كما تُسَمَّى «الانفطار»: ﴿إِذَا

---

(١) ينظر: «تفسير مقاتل» (٤/ ٥٩٩)، و«تفسير الطبري» (٢٤/ ١٢٨)، و«تفسير ابن عطية» (٥/ ٤٤١)، و«تفسير القرطبي» (١٩/ ٢٢٦)، و«التحرير والتنوير» (٣٠/ ١٣٩).

(٢) أخرجه أحمد (٤٨٠٦)، والترمذي (٣٣٣٣)، وابن أبي الدنيا في «الأهوال» (١٩)، والحاكم (٤/ ٥٧٦).

(٣) ينظر: «تفسير مجاهد» (ص ٧٠٧)، و«تفسير عبد الرزاق» (٣/ ٣٩٥)، و«صحيح البخاري»، كتاب التفسير (٦/ ١٦٦)، و«جامع الترمذي»، كتاب التفسير (٥/ ٢٩٠)، و«روح المعاني» (١٥/ ٢٥٣)، و«التحرير والتنوير» (٣٠/ ١٣٩).

﴿ٱلسَّمَآءُ ٱنفَطَرَتۡ﴾.

* عدد آياتها: (٢٩) آية، أو (٢٨) آية، حسب اختلافهم[١].

* وهي مكية بإجماع أهل التفسير[٢].

وقد ورد في فضلها حديث أبي بكر رضي الله عنه، أنه قال لرسول الله ﷺ: يا رسول الله قد شِبْتَ! قال: «شَيَّبَتني هودٌ والواقعةُ والمرسلاتُ و﴿عَمَّ يَتَسَآءَلُونَ﴾ و﴿إِذَا ٱلشَّمۡسُ كُوِّرَتۡ﴾»[٣].

وهو حديث مضطرب، كما ذكر ذلك الحافظ ابن الصلاح وغيره[٤].

* موضوع السورة:

في صدرها أخبر تعالى باثني عشر خبرًا متتاليًا: ستة منها -كما قال ابن عباس رضي الله عنهما- تتعلق بالدنيا، وستة تتعلق بالآخرة[٥].

فالستة التي تتعلق بالدنيا ستقع في آخرها، والستة التي تتعلق بالآخرة ستقع في

---

(١) ينظر: «البيان في عد آي القرآن» (ص ٢٦٥)، و«روح المعاني» (١٥/ ٢٥٣)، والمصادر السابقة.

(٢) ينظر: «تفسير ابن عطية» (٥/ ٤٤١)، و«زاد المسير» (٤/ ٤٠٥)، و«تفسير الثعالبي» (٥/ ٥٥٥)، و«مصاعد النظر للإشراف على مقاصد السور» للبقاعي (٣/ ١٦٠)، و«روح المعاني» (١٥/ ٢٥٣)، و«التحرير والتنوير» (٣٠/ ١٣٩).

(٣) أخرجه ابن أبي شيبة (٣٠٢٦٨)، والترمذي (٣٢٩٧)، وفي «العلل الكبير» (٦٦٤)، والحاكم (٢/ ٣٤٣)، وأبو نعيم في «حلية الأولياء» (٤/ ٣٥٠) من حديث ابن عباس رضي الله عنهما.

(٤) ينظر: «علل ابن أبي حاتم» (١/ ٦٤١، ٦٦٥)، و«علل الدارقطني» (١/ ١٩٣-٢١١)، و«فتح المغيث» للسخاوي (١/ ٢٩٤)، و«النكت على ابن الصلاح» لابن حجر (١/ ١١٨)، و«تدريب الراوي» (١/ ٣١٢)، و«الإرشادات في تقوية الأحاديث بالشواهد والمتابعات» لطارق عوض الله (ص ٣٥١-٣٥٤)، و«السلسلة الصحيحة» (٩٥٥).

(٥) ينظر: «تفسير الثعلبي» (١٠/ ١٤١)، و«تفسير البغوي» (٥/ ٢١٥)، و«زاد المسير» (٤/ ٤٠٧)، و«تفسير القرطبي» (١٩/ ٢٣٦).

أولها، فكأنها متتابعة، يفضي بعضها إلى بعض.

كرَّر لفظ: ﴿إِذَا﴾، وهو أداة شرط للمستقبل، وفيه إطناب؛ لأنه يمكن أن يُكتفَى بأداة واحدة، فيُقال: إذا كوِّرت الشمس، وانكدرت النجوم، وسيِّرت الجبال.. والتكرار هنا من البلاغة؛ لأنه يشعرك أن كلَّ حدث هو خبر مستقلٌّ له هيبته ووَقْعُه وتأثيره، وكل حدث جدير بالاهتمام والعناية والتكريس، فليس التكرار هنا من الحشو الذي لا فائدة منه، بل هو بليغ مؤثِّر، وفيه تشويق للخبر الذي بعده؛ فبعد ثنتي عشرة آية مُصدَّرة بـ﴿إِذَا﴾ يأتي الجواب: ﴿عَلِمَتْ نَفْسٌ مَّآ أَحْضَرَتْ﴾ [التكوير:١٤].

وفيه تخويف؛ لأنه يسرد مجموعة من الحوادث العظيمة الهائلة بسرعة ولكن بتفصيل، وكأنها مشاهد متلاحقة كل واحد منها يستقل بإطاره ثم يمضي ليلحقه ما بعده.

ويُرْوَى أن أبا الوفاء بن عَقِيل رحمه الله كان في مجلس، وقُرِئت هذه السورة، فقال بعض الحاضرين: يا سيدي، هَبْ أنه أَنشر الموتى للبعث والحساب، وزوَّج النفوس بقرنائها بالثواب والعقاب، فلِمَ هدَمَ الأبنيةَ وسيَّر الجبالَ ودكَّ الأرضَ وفطَرَ السماءَ ونثرَ النجومَ وكوَّر الشمسَ؟

فذكر له أن ذلك لعدة معان:

١- أنه بنى لهم الدار للسكنى والتمتع، وجعلها وجعل ما فيها للاعتبار والتفكر والاستدلال عليه، فلما انقضت مدة السكنى وأجلاهم من الدار خربها؛ لانتقال الساكن منها.

٢- في ذلك تكذيب لأهل الإلحاد والزنادقة، وفضحهم وتكذيبهم؛ بهدم آلهتهم ونثر معبوداتهم ومحوها.

٣- في ذلك إظهار أن العالم مربوب محدث مدبَّر، له ربٌّ يصرِّفه كيف يشاء،

تكذيبًا للملاحدة الفلاسفة القائلين بالقدم[1].

٤- في ذلك بيان لعزة الله وقهره وغلبته.

تقديم الاسم على الفعل في الآية:

قدم السياق الاسم «الشمس .. النجوم...» على الفعل «كورت.. انكدرت..»؛ لأن الشمس والنجوم والجبال موجودة ويراها الناس، ومستقرة في الأذهان، فإذا قال لك قائل: «الشمس» تخيَّلت صورة الشمس وهي في كبد السماء تلقائيًّا، وكذلك إذا قال لك: «النجوم» تخيَّلت هذه القبة الزرقاء، وتخيَّلت نجومها تتلألأ وتضيء، فيكون الخبر واقعًا على أمر حاضر في الأذهان، يسرع الخيال إلى تصوره وتصويره، فيكون أقوى في التأثير، حيث جعل الاسم المُسْنَد إليه أولًا، ثم بيَّن ما يطرأ عليه من الفعل، وتغيير صورته البهيَّة الجميلة.

* ﴿إِذَا ٱلشَّمۡسُ كُوِّرَتۡ﴾ [التكوير:١]:

أي: ذهب ضوؤها فأظلمت، وهذا مروي عن ابن عباس رضي الله عنهما[2].

ويحتمل أن يكون المعنى: توقفها، وعدم جريانها مع ذهاب ضوئها، كما في قوله سبحانه وتعالى: ﴿وَجُمِعَ ٱلشَّمۡسُ وَٱلۡقَمَرُ﴾ [القيامة:٩] وإنما جُمِعَا، لاختلال نظام جريانهما.

ويُحْتَمَل أن يكون المعنى: رُمِيَت وأُلْقِيَت، كما يقال: إن فلانًا صارع فلانًا فكوَّره. يعني: أسقطه أرضًا.

وكل هذه المعاني واردة وتحتملها الآية، فهي تعني أن الشمس تُظْلِم ويذهب ضوؤها وتنطفئ، وتتوقف عن حركتها المعتادة وطلوعها وغروبها، وتسقط.

لكن لا يلزم أن تقع هذه الحوادث كلها دفعة واحدة، بل تقع على التوالي مرة

---

(١) ينظر: «بدائع الفوائد» (٣/ ١٨٣).

(٢) ينظر: «تفسير الثعلبي» (١٠/ ١٣٦)، و«تفسير السمعاني» (٦/ ١٦٤).

بعد أخرى[1].

* ﴿ وَإِذَا ٱلنُّجُومُ ٱنكَدَرَتْ ﴾ [التكوير:٢]:

﴿ ٱلنُّجُومُ ﴾ معروفة، وانكدارها هو ذهاب ضوئها.

وفي الآية الأخرى: ﴿ وَإِذَا ٱلْكَوَاكِبُ ٱنتَثَرَتْ ﴾ [الانفطار:٢]، وعلى هذا فإن من معاني الآية: انتشارها وتفرُّقها، فعندما يحصل انهيار النظام الكوني المعهود تظلم النجوم وتسودُّ وتتساقط، وربما تهوي في الفضاء، ويضرب بعضها بعضًا، ويحطِّم بعضها بعضًا، أو تسقط في الأرض، أو في البحر، أو في ما شاء الله.

* ﴿ وَإِذَا ٱلْجِبَالُ سُيِّرَتْ ﴾ [التكوير:٣]:

و﴿ ٱلْجِبَالُ ﴾ راسخة، حتى صارت مثلًا ورمزًا للقوة والثبات، ومع ذلك تُسيَّر: ﴿ وَإِذَا ٱلْجِبَالُ سُيِّرَتْ ﴾، وجاء وصف هذا المشهد في آيات أخرى كما في قوله سبحانه: ﴿ وَتَكُونُ ٱلْجِبَالُ كَٱلْعِهْنِ ﴾ [المعارج:٩]، وقوله: ﴿ وَتَكُونُ ٱلْجِبَالُ كَٱلْعِهْنِ ٱلْمَنفُوشِ ﴾ [القارعة:٥].

تصبح مثل القطن في خِفَّته، وكالسحاب في مروره، ثم تُدَكُّ وتزول، وتصبح الأرض بعد ذلك ﴿ قَاعًا صَفْصَفًا ۝١٠٦ لَّا تَرَىٰ فِيهَا عِوَجًا وَلَآ أَمْتًا ﴾ [طه:١٠٦-١٠٧]، ولا ارتفاعًا ولا انخفاضًا، كما مر في «سورة عم»: ﴿ وَسُيِّرَتِ ٱلْجِبَالُ فَكَانَتْ سَرَابًا ﴾ [النبأ:٢٠].

* ﴿ وَإِذَا ٱلْعِشَارُ عُطِّلَتْ ﴾ [التكوير:٤]:

أكثر المفسرين على أن ﴿ ٱلْعِشَارُ ﴾ هي: النوق الحوامل؛ لأن الناقة الحامل إذا دخلت في شهرها العاشر تُسَمَّى: «عُشَراء» حتى تلد، والنوق كانت من أنفس أموال العرب.

---

(١) ينظر: «تفسير الثعلبي» (١٠/ ١٦٤)، و«تفسير السمعاني» (٦/ ١٦٤)، و«فتح القدير» (٥/ ٥٤٦).

ويحتمل أن ﴿ٱلْعِشَارُ﴾ هي: الأرض أو الديار التي تُعشَّر، أي: يُؤْخَذ منها الخراج، فالأرض الثمينة النفيسة لدى أصحابها تُهمل وتُتْرك وتتعطَّل، وهذا لا يكون إلا لوقوع أهوال من علامات الساعة في الدنيا(١).

و﴿عُطِّلَتْ﴾: أي: تُرِكَت، فلا أحد يهتمُّ بها، ولا يركبها، ولا يقتنيها، ولا يحلبها، ولا يعتني بها؛ لأن الناس مشغولون بما هو أعظم.

* ﴿وَإِذَا ٱلْوُحُوشُ حُشِرَتْ﴾ [التكوير:٥]:

﴿ٱلْوُحُوشُ﴾ معروفة، وهي الحيوانات المتوحِّشة، و﴿حُشِرَتْ﴾ أي: جُمِعت، وهذا أحسن وأصحُّ ما قيل، وهو أكثر ما يَرِدُ في القرآن في معنى الحشر، منها قوله تعالى: ﴿فَحَشَرَ فَنَادَىٰ﴾ [النازعات:٢٣]. يعني: جمع قومه، ونادى فيهم(٢).

ومنها: قوله: ﴿وَحَشَرْنَٰهُمْ فَلَمْ نُغَادِرْ مِنْهُمْ أَحَدًا﴾ [الكهف:٤٧]، يعني: جمعناهم.

وقوله تعالى: ﴿وَٱلطَّيْرَ مَحْشُورَةً كُلٌّ لَّهُۥٓ أَوَّابٌ﴾ [ص:١٩]، يعني: مجموعة.

وقوله تعالى: ﴿ٱحْشُرُوا۟ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ وَأَزْوَٰجَهُمْ وَمَا كَانُوا۟ يَعْبُدُونَ﴾ [الصافات:٢٢]، أي: اجمعوا.

فالحشر بمعنى الجمع هو الأقرب في هذه الآية، ولا يمنع أن يكون جمعها هنا لإهلاكها، يعني: جُمِعَت ثم أُهْلِكَت؛ لأن السياق قبلها وبعدها لا يزال في وصف زوال الدنيا وقيام الساعة، كما قال ابن عباس رضي الله عنهما: «ستٌّ في الدنيا...» وذكرهن، وقد تقدم.

أما لو كان السياق عن الآخرة ويوم القيامة، فيكون معنى ﴿حُشِرَتْ﴾ أي: بُعِثَت، ليُقْتَصَّ لبعضها من بعض، حتى يُقْتَصَّ للشاة الجلحاء من الشاة القرناء(٣)، ثم

(١) ينظر: «تفسير الطبري» (٢٤/ ٢٤٠)، و«تفسير القرطبي» (١٩/ ٢٢٩).

(٢) وهو قول قتادة. ينظر: «تفسير الثعلبي» (١٠/ ١٣٧)، و«تفسير ابن كثير» (٨/ ٣٣١).

(٣) ينظر: «صحيح مسلم» (٢٥٨٢).

يقال لها: «كوني ترابًا»[1].

وقد يكون جمع الوحوش بسبب الخراب الذي سيلحق الحياة البشرية، فترتعد له الوحوش الضواري ويقترب بعضها من بعض، وقد ورد عن مجاهد -ورُوي مرفوعًا- في تفسير قوله تعالى: ﴿حَتَّىٰ تَضَعَ ٱلۡحَرۡبُ أَوۡزَارَهَا﴾ [محمد:٤]، يعني: «حتى ينزل عيسى ابن مريم، فيُسْلِم له كلُّ يهودي ونصراني، وكلُّ صاحبِ مِلَّة، وتأمنُ الشاةُ الذئب..»[2].

* ﴿وَإِذَا ٱلۡبِحَارُ سُجِّرَتۡ﴾ [التكوير:٦]:

وجاء في سورة الانفطار: ﴿وَإِذَا ٱلۡبِحَارُ فُجِّرَتۡ﴾ [الانفطار:٣]. ولا مانع من إرادة المعنيين، ففي قوله تعالى: ﴿فُجِّرَتۡ﴾ يكون تفجيرها بإعادتها إلى عناصرها الأولية، وإحداث الانفجار، ومِن ثَمَّ تتوقَّد وتخرج منها النار، وهنا قال: ﴿سُجِّرَتۡ﴾، والتسجير هو من: سجَّرت التنور، يعني: أوقدته. ويحتمل المعنى: أن تُفْتَح البحار بعضها على بعض، ثم تفجَّر وتكون لهبًا ونارًا.

فهذه ست آيات تتعلَّق أخبارها بالدنيا، وهي علامات على يوم القيامة، كما قال سبحانه: ﴿إِنَّ زَلۡزَلَةَ ٱلسَّاعَةِ شَيۡءٌ عَظِيمٌ﴾ [الحج:١].

ثم انتقل السياق بعد ذلك إلى ذكر آيات أخرى تتعلق بالدار الآخرة، بعد بَعْث الناس من قبورهم، ورؤيتهم لمشاهد الآخرة عيانًا أمام أبصارهم.

* ﴿وَإِذَا ٱلنُّفُوسُ زُوِّجَتۡ﴾ [التكوير:٧]:

في تفسيرها ثلاثة أقوال:

---

(١) ينظر ما تقدم في «سورة النبأ» عند قوله: ﴿وَيَقُولُ ٱلۡكَافِرُ يَٰلَيۡتَنِي كُنتُ تُرَٰبَۢا ٤٠﴾.

(٢) ينظر: «تفسير مجاهد» (ص٦٠٤)، و«أشراط الساعة» لعبد الملك بن حبيب (٤/ ١٣٦)، و«تفسير الطبري» (٢١/ ١٨٨)، و«سنن البيهقي» (٩/ ١٨٠)، و«تفسير السمعاني» (٥/ ٢٠٨)، و«تاريخ دمشق» (٤٧/ ٥١٢)، و«تفسير القرطبي» (١٦/ ٢٢٨).

أشهرها: أن المقصود: حشرُ كلٍّ إلى نظيره، فيُحشَر الأخيار مع الأخيار، والأشرار مع الأشرار.

وهذه آية تدل على أهمية الصحبة الصالحة؛ لأن الإنسان يُحشَر مع قرنائه وأَخِلَّائه، كما في قوله تعالى: ﴿ ٱحۡشُرُواْ ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ وَأَزۡوَٰجَهُمۡ ﴾ [الصافات:٢٢]، أي: نظراءهم[١]، وقوله سبحانه: ﴿ ٱلۡأَخِلَّآءُ يَوۡمَئِذِۭ بَعۡضُهُمۡ لِبَعۡضٍ عَدُوٌّ إِلَّا ٱلۡمُتَّقِينَ ﴾ [الزخرف:٦٧]، فالأشرار يُحشَرون معًا، ولكنهم متباغضون، والأخيار يُحشَرون معًا متحابِّين متآلِفين حتى في عرصات القيامة، وهذه من بركة الأخوة والمحبة في الله، فهي لا تنقطع بالموت ولا بغيره.

وهذا القول منسوب لعمر رضي الله عنه، واختاره الطبري، وابن كثير، وعليه أكثر المفسرين[٢].

الثاني: إعادة الأرواح إلى أجسادها[٣]، وهو معنًى صحيح، ويؤيده أن ذلك بداية البعث وأوله، وما بعده تبع له مما جاء في سياق السورة.

الثالث: هو قرن النفوس بأعمالها. قاله الزَّجَّاج وغيره[٤]، فكأنه حكاية عن إيتاء الإنسان كتابه بيمينه أو شماله.

---

(١) ينظر: «تفسير الطبري» (١٩/ ٥١٩).

(٢) ينظر: «تفسير مجاهد» (ص٧٠٧)، و«تفسير عبد الرزاق» (٣/ ٣٩٦)، و«مصنف ابن أبي شيبة» (١٣/ ٢٧٩)، و«تفسير الطبري» (٢٤/ ١٤١-١٤٢)، و«المستدرك» (٢/ ٥١٥، ٥١٦)، و«تفسير ابن كثير» (٧/ ٩)، (٨/ ٣٣٢)، و«تغليق التعليق» (٤/ ٣٦١)، و«فتح الباري» (٦/ ٦٩٤)، و«الدر المنثور» (١٢/ ٣٩٥)، (١٥/ ٢٦٥).

(٣) ينظر: «تفسير الطبري» (٢٤/ ١٤٤)، و«معجم ابن المقرئ» (٦٠٠)، و«تفسير الثعلبي» (١٠/ ١٣٩)، و«تفسير القرطبي» (١٩/ ٢٣٢)، و«التحرير والتنوير» (٣٠/ ١٣٠).

(٤) ينظر: «معاني القرآن وإعرابه» للزجاج (٥/ ٢٩٠)، و«تفسير السمعاني» (٦/ ١٦٦)، و«تفسير الرازي» (٣١/ ٦٥)، و«تفسير القرطبي» (١٩/ ٢٣٢)، و«التحرير والتنوير» (٣٠/ ١٣٠).

* ﴿ وَإِذَا ٱلۡمَوۡءُۥدَةُ سُئِلَتۡ ﴾ [التكوير:٨]:

بعدما قام الناس أحياءً، وزُوِّجت الأجساد بأرواحها، وحُشِرَ الأبرار مع الأبرار، والفجار مع الفجار، ينتظر السامع عما سيقع بعد ذلك، فيُفاجأ بأول ما يطرق سمعه بعد وهو مشهد الموءودة تُسأل: بأي ذنب قتلت، مع أنه قد ورد في القرآن الكريم أن الناس يُسألون عما كانوا يعبدون من دون الله، وعما كانوا يعملون، وماذا أجابوا المرسلين، وعن النعيم، والسورة مكية متقدمة النـزول، وقد تضمَّنت تقريعًا للمشركين على الفعلة الشنعاء.

و﴿ ٱلۡمَوۡءُۥدَةُ ﴾: الجارية الوئيدة، وقد كان القليل من قبائل العرب إذا قاربت المرأة الحامل عندهم أن تضع حملها وضعوها على شفير حفرة، فإن كان غلامًا أخذوه، وإن كانت جارية وضعوها في الحفرة، وواروها بالتراب!

وقد ذكر تعالى هذا المعنى في قوله: ﴿ وَإِذَا بُشِّرَ أَحَدُهُم بِمَا ضَرَبَ لِلرَّحۡمَٰنِ مَثَلٗا ظَلَّ وَجۡهُهُۥ مُسۡوَدّٗا وَهُوَ كَظِيمٌ ﴾ [الزخرف:١٧]، وفي الآية الأخرى: ﴿ وَإِذَا بُشِّرَ أَحَدُهُم بِٱلۡأُنثَىٰ ظَلَّ وَجۡهُهُۥ مُسۡوَدّٗا وَهُوَ كَظِيمٞ ۝٥٨ يَتَوَٰرَىٰ مِنَ ٱلۡقَوۡمِ مِن سُوٓءِ مَا بُشِّرَ بِهِۦٓۚ أَيُمۡسِكُهُۥ عَلَىٰ هُونٍ أَمۡ يَدُسُّهُۥ فِي ٱلتُّرَابِۗ ﴾ [النحل:٥٨-٥٩]، يعني: هل يبقيها حيَّة مع الهوان أو يدفنها؟

وقد رُوي أن قيس بن عاصم المِنْقري -وهو مَن هو في شرفه ومجده وكرمه- وأد عشرًا من البنات[1]؛ ولذلك كان الفرزدق -وهو تميمي- يفخر بجدِّه صعصعة ابن ناجية الذي يقال: إنه أحيا أكثر من أربعمائة وئيدة، وكان إذا أراد والدها أن يئدها، قال له: أنا أكفلها. ويعطيه ناقتين، ثم يتركها حيَّة؛ فكان الفرزدق يثني عليه بقوله:

---

(١) ينظر: «تفسير عبد الرزاق» (٣/ ٣٩٧)، و«تفسير الطبري» (٢٤/ ١٤٧)، و«تفسير الرازي» (٢٠/ ٢٢٥)، و«تفسير القرطبي» (١٩/ ٢٣٣)، و«روح المعاني» (١٥/ ٢٥٧)، و«التحرير والتنوير» (٣٠/ ١٤٦).

ومنّا الذي مَنعَ الوائِداتِ   وأحيَا الوئيدَ فلمْ يوأدِ[1]

ويُروى أن عمر رضي الله عنه وأد إحدى بناته وكانت تنفض التراب عن لحيته، وأنه كان يروي قصته بعد الإسلام ويبكي، وهي قصة موضوعة لا تصح[2].

وهذه العادة كانت موجودة في بعض قبائل العرب، وعند كثير من أمم الأرض، كالصينيين والهنود وغيرهم، ولا تزال بعض الأمم تمارِس شيئًا من الوأد الظاهر أو الوأد الخفي، منها التحكم في المواليد واختيار الذكور على الإناث، ففي كوريا كان يولد في أوائل التسعينات من القرن العشرين (١٢٢) صبيًّا مقابل كل (١٠٠) بنت، كما بلغت في الصين الشعبية (١١٧) صبيًّا لكل (١٠٠) بنت، وأدى هذا إلى نقص البنات في آسيا، وبحلول العقد الثاني من القرن (٢١) ستواجه الصين حسب التقديرات وضعًا لن يجد فيه (خُمس) السكان الذكور في سن الزواج عرائس لهم! مما يترتب عليه نزوع الشباب إلى الجريمة، علمًا أن النسبة الطبيعية هي (١٠٥) فتى مقابل كل (١٠٠) بنت[3].

ومن ذلك عمليات التحويل الجنسية المتبادلة لأسباب شتى، مما يجور على الأنثى في الحالين، ويبخسها حقها وخصوصيتها.

ومن ذلك تجاهل الفروق الجوهرية بين الذكر والأنثى، وقد أظهرت دراسات علمية وجود فروق ثابتة، فالأنثى تملك قدرات لفظية أكثر من الذكر، وتتفوق عادة في القدرات البصرية، بينما يملك الولد قدرات رياضية، وتكون عدوانية الذكور أكثر بكثير، ولعب الأولاد بدني أكثر من البنات، وهم أكثر تنافسية جماعية، وخطاب البنات يركز أكثر على العلاقات الأسرية.

---

(١) ينظر: «الكامل» للمبرد (٢/ ٥٧)، و«منتهى الطلب» (ص ٢٢٥، ٢٢٦)، و«التذكرة الحمدونية» (٢/ ٣٨٩)، و«أسد الغابة» (١/ ٥١٩)، و«الإصابة» (٣/ ٤٣٠).

(٢) ينظر: «دراسة نقدية في المرويات الواردة في شخصية عمر» (ص ١١١-١١٢).

(٣) ينظر: كتاب «مستقبلنا بعد البشر» لفوكويا ما.

هذا فضلًا عن الفروق الجسدية، والتي كثيرًا ما تجور عليها طبيعة الأعمال التي تسند إلى المرأة، أو نوع التربية أو تركيز الإعلام.

أما تسليع المرأة وتوظيف جسدها في الإثارة والتشويق والاستهلاك، فقد أصبح فنًّا تقوم عليه دوائر اقتصادية ضخمة، وتسخَّر له جهود وإمكانات، والله المستعان.

وفي العالم الإسلامي طرف من ذلك كله، فضلًا عن التبرم بولادة الأنثى، واعتبارها عارًا وعيبًا في بعض المجتمعات، والاستحياء من النطق باسمها، وحرمانها من حقوقها المشروعة، حتى من الميراث أحيانًا، ومن حق اختيار الزوج، وحق الدراسة والعمل المباح، والحقوق السياسية التي كفلها الإسلام حتى استشيرت النساء في من يلي الخلافة بعد عمر رضي الله عنه!

وهنا سؤال: لماذا تُسأل الموءودة، مع أن السؤال في حقيقته موجَّه لوائدها، وهو سؤال يرد في مثل قوله سبحانه: ﴿وَإِذْ قَالَ ٱللَّهُ يَٰعِيسَى ٱبْنَ مَرْيَمَ ءَأَنتَ قُلْتَ لِلنَّاسِ ٱتَّخِذُونِي وَأُمِّيَ إِلَٰهَيْنِ مِن دُونِ ٱللَّهِۖ قَالَ سُبْحَٰنَكَ مَا يَكُونُ لِيٓ أَنْ أَقُولَ مَا لَيْسَ لِي بِحَقٍّۚ﴾ [المائدة: ١١٦]:

١- فذلك أنه في يوم القيامة ينطق مَن لم يكن ينطق، ويُبِيْن مَن لم يكن يُبِين، ويتكلم كل أحد بحجته، فالمظلومون في الدنيا من الضعفاء والفقراء والنساء والمستضعفين المحرومين من حقوقهم يمكَّن لهم يوم القيامة من البوح بشكواهم والمطالبة بالاقتصاص والشكوى إلى الله عز وجل، فهي لما سُئلت، تجيب: إنها قُتِلَت بغير ذنب.

٢- أن سؤال الموءودة توبيخ وتبكيت لوائدها، والظالم قد يتمادى في الغي والاستبداد والطغيان، ويزين له عقله وبطانته الفاسدة كثيرًا مما يعمل، فلا يلتفت ولا يتوقف، ثم يأذن الله بانكشافه وتأنيب ضميره بما يسمعه من شكاية مظلوميه، وهكذا مجرد كون الموءودة يوم القيامة تُسأل وتُعطى حق السؤال وحق الجواب، وتعترض

وتحتج، وتشتكي إلى الله، فهذا تبكيت وإيلام للوائد، فضلًا عن أنه يُوحِي بمجيء الحساب.

والوائد غالبًا هو الأب أو مَن يقوم مقامه، وفي هذا عبرة، فالله تعالى ينتقم يوم القيامة للولد من أبيه، فينتقم للموءودة من وائدها، وهو أبوها، ويعاقبه على ذلك بالنار والنكال الشديد، وهذا دليل على ثقل المسؤولية، وأنها لا تعني إطلاق اليد، وإنما تعني التبعة والمحاسبة والسؤال، كما قال الله تعالى: ﴿ وَقِفُوهُمْ إِنَّهُم مَّسْئُولُونَ ﴾ [الصافات:٢٤]، ولذلك يكون أصحاب المسؤوليات أطول وقوفًا، وأعظم سؤالًا يوم القيامة.

* ﴿ بِأَيِّ ذَنبٍ قُتِلَتْ ﴾ [التكوير:٩]:

فيه تقبيح لفعل الوائد؛ فإن هذه الموءودة قُتِلَت وهي صغيرة، فأيُّ ذنب قد جَنَتْهُ حتى تُقْتَل؟! وهو تجريد لهذه الفعلة من أي مسوِّغ، فهي فعلة شنيعة بكل حال، ويزيدها شناعة براءة مَن وقعت عليه من كل ذنب؛ لأنه ليس محلًّا لصدور الذنب منه.

٣- كما تضمنت الآية إشارة إلى مبحث مصير الأطفال يوم القيامة، وهو بحث طويل، تكلّم فيه أهل العلم؛ كالبخاري والأشعري وابن عبد البر وابن حزم وابن تيمية وابن القيم والشوكاني وغيرهم.

أما أولاد المسلمين، فنُقِل عن الإمام أحمد الإجماع على أنهم في الجنة[(١)].

وأما أطفال المشركين، فقد اختُلف فيهم على أقوال، ذكرها ابن القيم في «أحكام أهل الذمّة»[(٢)]، وأطال كثير من الباحثين القول فيها، وأفردوا فيها مصنفات خاصة، أحد هذه الأقوال أن أطفال المشركين ممن ماتوا دون البلوغ هم في الجنة، ونُقِل هذا

---

(١) ينظر: «المنتخب من علل الخلال» (ص ٥٣)، و«شرح النووي على صحيح مسلم» (١٦/ ١٨٣)، و«فتح الباري» (٣/ ٢٤٤).

(٢) ينظر: «أحكام أهل الذمة» (١/ ٩٤٤) وما بعدها.

عن سلمان الفارسي رضي الله عنه[1]، وابن عباس رضي الله عنهما؛ مستدلًّا بهذه الآية، ونُقِل أنه قال: «أطفال المشركين في الجنة، فمَن زعم أنهم في النار فقد كذب، يقول الله تعالى: ﴿وَإِذَا ٱلْمَوْءُۥدَةُ سُئِلَتْ﴾». وهذا مذهب البخاري وابن حزم وجماعة من الفقهاء والسلف والمتكلِّمين[2].

وقيل: إنهم يختبرون في عَرَصات القيامة، وهذا ما مال إليه ابن القيم، لكن يحتاج إلى أدلة قوية ثابتة؛ لأنه خلاف الأصل الراسخ أن الاختبار في الدنيا قبل الموت وليس بعده.

والراجح أنهم في الجنة، كما في حديث الرؤية أنه ﷺ رأى إبراهيم عليه السلام وحوله صبيان؛ أولاد الناس، وفيه: «وأما الولدان الذين حوله، فكل مولود مات على الفطرة». فقال بعضهم : يا رسول الله ، وأولاد المشركين؟ قال: «وأولاد المشركين»[3].

* ﴿وَإِذَا ٱلصُّحُفُ نُشِرَتْ﴾ [التكوير:١٠]:

﴿ٱلصُّحُفُ﴾ جمع صحيفة، وهي: الكتب، فآخذٌ كتابَه باليمين، وآخذٌ كتابَه بالشمال، فنَشْر الصحف هو: إعطاؤها لأصحابها، كما قال تعالى: ﴿وَكُلَّ إِنسَٰنٍ أَلْزَمْنَٰهُ طَٰٓئِرَهُۥ فِى عُنُقِهِۦ ۖ وَنُخْرِجُ لَهُۥ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ كِتَٰبًا يَلْقَىٰهُ مَنشُورًا ﴿١٣﴾ ٱقْرَأْ كِتَٰبَكَ﴾ [الإسراء:١٣-١٤].

---

(١) أخرجه معمر في «جامعه» (٢٠٠٧٩)، ولُوَين في «حديثه» (٣٣)، وابن نصر - كما في «أحكام أهل الذمة» (٢/ ١١٣٠)- والبيهقي في «القضاء والقدر» (٥٦٧).

(٢) ينظر: «تفسير ابن أبي حاتم» (١٠/ ٣٤٠٦) (١٩١٦٦)، و«أمالي الشجري» (١/ ٢٤)، و«تفسير القرطبي» (١٧/ ٢٠٣)، و«أحكام أهل الذمة» (١/ ٩٤٤) وما بعدها، و«تفسير ابن كثير» (٤/ ٤٧٨).

(٣) أخرجه البخاري (١٣٨٦، ٧٠٤٧).

ومن معاني النشر أيضًا: فتح الصحائف، فهي تُفَرَّق على أصحابها، منشورة؛ أي: مفتوحة.

* ﴿ وَإِذَا ٱلسَّمَآءُ كُشِطَتۡ ﴾ [التكوير:١١]:

وهذا في الآخرة، وليس في الدنيا، فكَشْطُ السماء مختلف عما جرى لها قبل ذلك مما ورد أنها تتشقَّق وتتمزَّق وتُفتَّح فتكون أبوابًا لنزول الملائكة، وهذه هي حالها في آخر الدنيا، أما كَشْطُ السماء هنا فمُوجِب السياق أنه يكون يوم القيامة بعد البعث.

و«الكَشْط» هو: الإزالة[1]، كما قال تعالى: ﴿ يَوۡمَ تُبَدَّلُ ٱلۡأَرۡضُ غَيۡرَ ٱلۡأَرۡضِ وَٱلسَّمَٰوَٰتُۖ وَبَرَزُواْ لِلَّهِ ٱلۡوَٰحِدِ ٱلۡقَهَّارِ ﴾ [إبراهيم:٤٨].

* ﴿ وَإِذَا ٱلۡجَحِيمُ سُعِّرَتۡ ﴾ [التكوير:١٢]:

فيه إشارة إلى أن النار مخلوقة الآن، وهو ظاهر النصوص الشرعية، كما يقول الإمام الطحاوي: «والجنة والنار مخلوقتان، لا تفنيان أبدًا ولا تبيدان»[2].

ولكن يزاد يوم القيامة تسعير الجحيم.

* ﴿ وَإِذَا ٱلۡجَنَّةُ أُزۡلِفَتۡ ﴾ [التكوير:١٣]:

عَطَف الجنة على النار؛ ليقارن المكلَّف بينهما، والإزلاف هو: التقريب، وسُمِّيَت جَمْعٌ: مزدلفةَ؛ لأنه يقترب إليها الحجاج، والزُّلْفَى هي: القربى، وازدلف، يعني: تقرَّب، كما قال سبحانه: ﴿ وَأُزۡلِفَتِ ٱلۡجَنَّةُ لِلۡمُتَّقِينَ غَيۡرَ بَعِيدٍ ﴾ [ق:٣١]، أي: قرِّبت.

وفي هذا التقريب لأهلها إكرامٌ لهم، فكأنها هي التي تأتيهم أو تقترب منهم؛ إشادة بأعمالهم الصالحة وتقواهم التي تقرَّبوا بها إلى ربهم.

---

(١) ينظر: «لسان العرب» (٧/ ٣٨٧).

(٢) ينظر: «العقيدة الطحاوية» (ص٥١).

* ﴿ عَلِمَتۡ نَفۡسٞ مَّآ أَحۡضَرَتۡ ﴾ [التكوير:١٤]:

أي: علمت كل نفس ما أحضرت من الأعمال في كتابها، وقد جاء في بعض الآيات حكاية عن الكافرين أنهم عند أول وهلة من البعث لا يستوعبون حدث البعث العظيم فيتساءلون: ﴿مَنۢ بَعَثَنَا مِن مَّرۡقَدِنَاۜ﴾، فهم بين مصدِّق ومكذِّب، فيبهتهم الجواب: ﴿هَٰذَا مَا وَعَدَ ٱلرَّحۡمَٰنُ وَصَدَقَ ٱلۡمُرۡسَلُونَ ﴾ [يس:٥٢]، وإذا بالمشاهد العظيمة تتوالى عليهم، كل مشهد أشد من سابقه.

فإذا حصل هذا: ﴿ عَلِمَتۡ نَفۡسٞ مَّآ أَحۡضَرَتۡ ﴾، أي: ما في يدها الآن، وفي سورة الانفطار: ﴿ عَلِمَتۡ نَفۡسٞ مَّا قَدَّمَتۡ وَأَخَّرَتۡ ﴾ [الانفطار:٥]، وكل سياق له ما يناسبه، والمعنى هنا: علمت ما أحضرت في كتابها؛ لأنه قال: ﴿ وَإِذَا ٱلصُّحُفُ نُشِرَتۡ ﴾ [التكوير:١٠]، فالكتاب معها حاضر، فترى النفس ما في كتابها، سواء كان خيرًا أو شرًّا.

* وبعد ذلك انتقلت السياقات في الآية إلى موضوع آخر، وقَسَم رباني عجيب مهيب، فقال سبحانه وتعالى: ﴿ فَلَآ أُقۡسِمُ بِٱلۡخُنَّسِ ﴾ [التكوير:١٥]. يخنس؛ أي: يختفي، ومنه قيل للشيطان: الوسواس الخنَّاس؛ لأنه يوسوس، فإذا استعاذ منه الإنسان هرب، فـ«الخُنَّس» هي الأشياء التي تختفي.

* وفسرها هنا بـ ﴿ٱلۡجَوَارِ ٱلۡكُنَّسِ﴾ [التكوير:١٦]؛ أي: التي تجري فتدخل في الكِناس وهو مكان الاختفاء، والعرب تسمي بيت الظبي: كِناسًا؛ لأن الظبي يختفي فيه، ومنه الكَنِيْسة أيضًا.

ويحتمل أن يكون المقصود بها: النجوم التي تظهر بالليل وتختفي في النهار(١). قال بعض أهل العلم: إنها نجوم خمسة، وهي: عطارد، والمريخ، والمشتري، والزهرة، وزحل.

---

(١) ينظر: «تفسير الماتريدي» (١٠/ ٤٣٥)، و«تفسير الماوردي» (٦/ ٢١٦)، و«المحرر الوجيز» (٥/ ٤٤٣)، و«تفسير القرطبي» (١٩/ ٢٣٦-٢٣٧).

وقال بعض المفسرين: إن المقصود: النجوم كلها، وشبَّهها بالظباء؛ لأن النجم في خِفَّته وإشراقه وحركته يُشبه بالظبي، وهذا تشبيه حيوي بديع.

وقال بعضهم: إن المراد بالخنس: الظباء.

وقيل: بقر الوحش التي تشبه الظباء.

وقيل: المقصود الملائكة(١). والأقرب القول الأول، وهو أن المقصود بها: النجوم، وهو أليق بالسياق، والليل والصبح(٢).

* ﴿ وَٱلَّيۡلِ إِذَا عَسۡعَسَ ﴾ [التكوير:١٧]:

﴿ عَسۡعَسَ ﴾ تحتمل معنى أقبل، ومعنى أدبر، والأظهر: أن المعنى شامل للصورتين؛ إقبال الليل وإدباره، فكلاهما يتحقق بالتدرج، وكأن عسعس على هذا من الأضداد.

* ﴿ وَٱلصُّبۡحِ إِذَا تَنَفَّسَ ﴾ [التكوير:١٨]:

والمقصود بتنفس الصبح: شروقه، والتعبير بـ«التنفس» هنا في غاية الروعة، وهو يُوحي بالحياة والإشراق والتجدُّد والتغيير، وأن كل صبح يمرُّ عليك ينبغي أن يُحيي فيك يومًا جديدًا، فتتزود فيه بالطاعة، فهو على عملك شهيد، وإذا طُوِيَت صفحته فإنه لا يعود إلى قيام الساعة، وأن يبعث فيك الأمل والتفاؤل والثقة بها عند الله، والرغبة المتجدِّدة في النجاح والإنجاز وتخطِّي الصعاب، فما ليس ممكنًا بالأمس هو اليوم مقدور ومتاح.

يقول الحسن البصري رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «ليس يومٌ يأتي من أيام الدنيا إِلَّا يتكلَّمُ يقولُ: يا أيها

---

(١) ينظر: «تفسير الماوردي» (٦/ ٢١٦، ٢١٧)، و«غرائب التفسير وعجائب التأويل» (٢/ ١٣١٢)، و«زاد المسير» (٤/ ٤٠٧).

(٢) ينظر: «تفسير الطبري» (٨/ ٣٣٧)، «الدر المنثور» (١٥/ ٢٦٨).

الناسُ، إني يومٌ جديدٌ، وأنا على مَن يعملُ فيَّ شَهِيدٌ، وإني لو غربت الشمسُ لم أرجع إليكم إلى يوم القيامة»[1].

* ﴿إِنَّهُۥ لَقَوۡلُ رَسُولٖ كَرِيمٖ﴾ [التكوير:١٩]:

هذا جواب القسم، والمقصود القرآن، ولا يعني أن الرسول تقوَّله من تلقاء نفسه، ولكنه الْمُبَلِّغ به من ربه، ووَصْفُه بأنه ﴿رَسُولٖ﴾ يوحي بهذا، كما هو ظاهر.

والمقصود بهذا الرسول عند الجمهور جبريل عليه السلام[2]، وصفه الله تعالى بستِّ صفات كلها جليلة:

فأول وصف: ﴿رَسُولٖ﴾، والله تعالى يصطفي من الملائكة رسلًا ومن الناس، فالرسل يكونون من الملائكة إلى الناس، ويكونون من الناس كالأنبياء عليهم الصلاة والسلام.

الثاني: ﴿كَرِيمٖ﴾، والكرم: الشرف والفضيلة، ويكفي في كرمه أنه مبلِّغُ وحي ربِّنا سبحانه وتعالى إلى أفضل خلقه، وهم الرسل والأنبياء عليهم الصلاة والسلام، ومكانته عند الملائكة عظيمة.

* ﴿ذِي قُوَّةٍ عِندَ ذِي ٱلۡعَرۡشِ مَكِينٖ﴾ [التكوير:٢٠]:

الثالث: ﴿ذِي قُوَّةٍ﴾ ويكفي في قوته: أن الله سبحانه وتعالى لما أمره أن يحمل قرى قوم لوط، حملهم جميعًا على جناحه حتى سمعت الملائكة نباح كلابهم، وصياح

---

(١) أخرجه ابن أبي الدنيا في «الزهد» (٤٢٤)، وفي «كلام الليالي والأيام» (٢٢)، وابن الجوزي في «حفظ العمر» (ص٣٦).

وأخرجه ابن أبي الدنيا في «الزهد» (٤٠٨)، وفي «كلام الليالي والأيام» (٦) من قول عبد الرحمن ابن زُبيد اليامي نحوه.

(٢) ينظر: «الدر المنثور» (١٥/ ٢٧٣)، «تفسير ابن كثير» (٨/ ٣٣٨).

ديكتهم، ثم قلبها[1].

وأعظم من ذلك تحمُّله تبعات الوحي والتلقِّي عن رب العزة وحمل الرسالة للنبي البشريِّ.

الرابع: ﴿عِندَ ذِى ٱلْعَرْشِ مَكِينٍ﴾، أي: صاحب مكانة عند الله، وأي مكانة أعظم من أن يكون رسول ربه إلى الرسل والأنبياء والمؤتمن على وحيه؟

* ﴿مُّطَاعٍ ثَمَّ أَمِينٍ﴾ [التكوير:٢١]:

الخامس: ﴿مُّطَاعٍ ثَمَّ﴾ و﴿ثَمَّ﴾ ظرف، ومعناها: هناك، فهو مطاع عند الملائكة والملأ الأعلى، بمثابة الرئيس عليهم، وله عليهم الطاعة.

السادس: ﴿أَمِينٍ﴾ يعني: مأمون فيما كُلِّف به، لا يزيد ولا ينقص، ولا يخل بشيء منه. فهذه الصفات الست لجبريل عليه السلام.

* ﴿وَمَا صَاحِبُكُم بِمَجْنُونٍ﴾ [التكوير:٢٢]:

والمقصود هنا محمد ﷺ، ووصفه هنا بـ﴿صَاحِبُكُم﴾ على سبيل التذكير لهم بأنه لم يَفِدْ إليهم من غيرهم غريبًا لا يعرفون نسبه وسيرته، بل قد وُلِدَ ونشأ فيهم، وعرفوا أصله ونسبه وسيرته وخُلُقَه، وهذا ردٌّ على ما كانوا يَدَّعونه من أنه ساحر أو شاعر أو كاهن أو مجنون، كأن السياق هنا يقول: لا حاجة إلى مزيد من التفصيل في شأن محمد ﷺ، فأنتم تعرفونه، وهو ﴿صَاحِبُكُم﴾.

وفيه تحفيز للإيمان؛ لأن اختيار رسول منهم هو رفعة للجنس كله، وهو ﴿صَاحِبُكُم﴾ عزه عزكم ونصره نصركم وأنتم أسعد الناس به.

---

(١) ينظر: «العقوبات» لابن أبي الدنيا (ص ٩٩-١٠٣)، و«تاريخ الطبري» (١/ ٣٠٤-٣٠٦)، و«ذم اللواط» للآجري (ص ٣٨)، و«العظمة» لأبي الشيخ (٢/ ٧٩٨)، و«التبصرة» لابن الجوزي (١/ ١٥٧)، و«البداية والنهاية» (١/ ٩٩).

* ﴿وَلَقَدْ رَءَاهُ بِٱلْأُفُقِ ٱلْمُبِينِ﴾ [التكوير:٢٣]:

أي: الأفق البيِّن الواضح، فقد رأى النبيُّ ﷺ جبريلَ عليه السلام في صورته التي خُلق عليها، وله ستمائة جناح، قد سدَّ ما بين السماء والأرض، وهذه هي الرؤية الأولى[١]، وكانت بالبطحاء، ثم رآه ﷺ بعد ذلك، كما قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ رَءَاهُ نَزْلَةً أُخْرَىٰ ﴿١٣﴾ عِندَ سِدْرَةِ ٱلْمُنتَهَىٰ ﴿١٤﴾ عِندَهَا جَنَّةُ ٱلْمَأْوَىٰٓ﴾ [النجم: ١٣-١٥].

* ﴿وَمَا هُوَ عَلَى ٱلْغَيْبِ بِضَنِينٍ﴾ [التكوير:٢٤]:

و«الضنين» هو البخيل، وهناك قراءة سبعية (بظنين) بالظاء[٢]، والمقصود به المُتَّهم، أي: لم يكن متهمًا بسوء[٣].

* ﴿وَمَا هُوَ بِقَوْلِ شَيْطَٰنٍ رَّجِيمٍ﴾ [التكوير:٢٥]:

حيث كان الكفار يدَّعون أن القرآن من إلقاء الشيطان، كما يُلْقِي الشيطان على السَّحرة والكهنة والعرَّافين وغيرهم، فرد الله عليهم ذلك[٤].

* ﴿فَأَيْنَ تَذْهَبُونَ﴾ [التكوير:٢٦]:

أي: قد أُغْلِقت الأبواب أمامكم، وليس لكم حجة أبدًا، فهذا مُنْزِلُ الوحي وهو الله، وهذا ناقله وهو جبريل عليه السلام، وهذا مُتَلَقِّيه وهو محمد ﷺ.

وكان مِن مألوف كلام العرب قولهم لمَن عمل سوءًا أو قبيحًا يُلْمَز به: أين يُذهب بك؟ يعني: أين ذهب عقلك؟ فجاء القرآن بأسلوب مبتكَر، لم يكن موجودًا

---

(١) ينظر: «صحيح البخاري» (٣٢٣٤)، و«صحيح مسلم» (١٧٤).

(٢) ينظر: «تفسير الطبري» (٢٤/ ١٦٩)، و«السبعة في القراءات» (ص ٦٧٣)، و«حجة القراءات» (ص ٧٥٢)، و«تفسير القرطبي» (١٩/ ٢٤٢)، و«التحرير والتنوير» (٣٠/ ١٦٠).

(٣) ينظر: «تفسير الرازي» (٣١/ ٧٠)، و«الدر المنثور» (١٥/ ٢٧٧).

(٤) ينظر: «تفسير مقاتل» (٤/ ٦٠٥)، و«تفسير الطبري» (٢٤/ ١٧١)، و«تفسير الماتريدي» (١٠/ ٤٣٩)، و«تفسير الرازي» (٣٠/ ٦٣٣)، و«تفسير القرطبي» (١٩/ ٢٤٢).

عند العرب، ثم استعملوه، وجرى عندهم مجرى المثل، وهو أقوى من قولهم: أي يُذْهَب بك؟ لأنه حين يقال: أين يُذهَب بك؟ كأنه يُعْطَى عذرًا بأنه ذُهب به بغير اختياره وإرادته، أما صيغة أين تذهب؟ فهي تحمِّله المسؤولية، وأنه هو الذي تعمَّد صرف وجهه عن الحق، والإعراض عن آياته.

* ﴿ إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ لِّلْعَالَمِينَ ﴾ [التكوير:٢٧]:

فهو ليس سوى ذكر، ودعوة، وإصلاح، ووعظ، وبيان، وهدًى، ليس للعرب بخاصة، بل للعالمين كافَّة، بإنسهم وجِنِّهم، فهذه هي عالمية الإسلام، تأتي مؤكِّدة في أوائل السور المكية، وهي لفتة إلى دعاة الإسلام وأبنائه أن يأخذوا بعالمية الرسالة في الدعوة، وأن يطبِّقوه في أقصى درجات التمدن والحضارة، كما كانوا يطبِّقونه في أدنى درجات البساطة والضعف والتخلف، وأن يستوعبوا النماذج البشرية المختلفة وينقوا الرسالة من الإضافات المحلية الخاصة حين يريدون عرضه على العالمين، بل يقدموه بأصوله وقواعده الربانية وخياراته المتنوعة في التطبيق وسَعته وشموليته في احتواء الموروث الإنساني وتنقيته والتعامل معه.

* ﴿ لِمَن شَاءَ مِنكُمْ أَن يَسْتَقِيمَ ﴾ [التكوير:٢٨]:

يعني: هو مِن حيث تنزيله للعالمين هداية للناس كلِّهم، فليس دينًا إقليميًّا أو عنصريًّا، أما قبول الناس وعدم قبولهم فهو شأن آخر، فمِن الناس مَن يشاء الاستقامة، فيستقيم، فيكون القرآن ذكرًا عمليًّا له، ومنهم مَن لا يريد ذلك، وهو المسؤول المحاسب على اختياره.

وفي الآية الإشارة إلى أن الإنسان إذا أراد الخير هداه الله، ويَسَّر له أسبابه، ومهما تكن العقبات في النفس أو في المجتمع فإن الإرادة الصادقة تذلِّلها بإذن الله، وقد جاء في الحديث القدسي: «ومَن تقرَّب إليَّ شبرًا تقرَّبت إليه ذِراعًا، ومَن تقرَّبَ إليَّ ذِراعًا

تقرَّبت إليه باعًا، وإذا أقبل إليّ يمشي أقبلتُ إليه أهرولُ»(١).

* ﴿وَمَا تَشَآءُونَ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ رَبُّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ [التكوير:٢٩]:

فللإنسان مشيئته الخاصة به، وللرب المشيئة المطلقة التامَّة، وكثير من الناس يدخلون في جدال في القدر، هل العبد مُسيَّر أم مخيَّر، وإذا كان الله قد قدَّر كلَّ شيء فلِمَ العملُ إذًا؟

وهو جدل لا ينتهي، على أن الإنسان يعرف بفطرته الضرورية المحسوسة أن له إرادة، فإذا تهدَّده خطر فرَّ منه بكل ما أوتي من قوة، وثَمَّةَ فرق بين إنسان يريد أن يصنع شيئًا فيصنعه، وبين إنسان يُجبَر على شيء، ويُقْهَر عليه قهرًا، وبين إنسان يريد النزول فيأخذ الدرج، خطوة خطوة حتى يصل، وآخر يتم حمله قسرًا والرمي به أرضًا، وهذا القدر المدرك لعامة العقلاء يكفي أن يكون مناط التكليف والمحاسبة.

ثم مَن الذي يظن أن مشيئة الله سبحانه مشيئة عشوائية، فيريد لهذا الهدى، ولهذا الضلال، ولهذا الخير، ولهذا الشرَّ، بمعزل عن إرادتهم ورغبتهم الذاتية!

فالله تعالى حكيم، وقد علم من الأزل أنَّ مِن خلقه المؤمن والكافر، والبَرَّ والفاجر، وأن هذا من أهل الهداية، وهذا من أهل الشقاوة، فأراد الهداية لقوم والضلال لقوم، وهو يعلم ما أرادوه لأنفسهم، فهو قد علم وأراد، فلا يُظَن أن إنسانًا كان يريد الهداية، ولكن الله عوَّق مسيرته، ولم يُرِدْ له الهداية، أو أن آخر كان لا يريد الهداية، لكن أُكْرِه عليها جبرًا من الله، وإن كان الأمر الثاني ممكنًا من باب الفضل والرحمة؛ فالله تعالى قد يتدارك عبده ويرحمه فيهديه، لكن أن يريد الإنسان الهداية فلا تتحقق له؛ لأن الله لا يريدها له، فهذا لا يكون في حقيقة الأمر؛ لأن الله تعالى حكيم في أعماله، عادل في أحكامه، سبحانه وبحمده.

○ ○ ○

(١) أخرجه البخاري (٧٤٠٥)، ومسلم (٢٦٧٥) من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.